المسلمون بين نيران السوفيت

صحفي ، وعالم ، وزعيم يتحدث إلى (المعرفة)

عياض بك اسحاقي

مندوب مسلمي روسيا في المؤتمر الاسلامي

لم يكن في يقيني وقد انتويت زيارة الزعيم الاسلامي الروسي «عياض بك اسحاق» - الذي عرفني به العلامة احمد زكي باشا، وجمعني إليه زعيم سوريا الكبير الدكتور عبد الرحمن شهبندر - للتحدث معه والترحيب به باسم « المعرفة » التي كان من حظها حتى اليوم أن تكون الصحيفة المصرية التي تتلاقى على مسرحها اقلام الشرق بما تبثه من آمال وآلام وآراء وأحلام ... لم يكن في يقيننا أن هماً واسع الجنبات ضاق الحلقات يترقبنا في زيارة الزعيم الكبير، وان ألماً رحيب الأسى سيمطرنا في مجلسه بوابل كالسيل ... ولكن هكذا قدر فكان، ومن الحق ان يكون ذلك الألم في كل نفس تعرف السبيل إلى التوجع، كما هزتها فجيعة، أو تعدتها مأساة ... وما من ريب في ان قراء « المعرفة » سيتولاهم الفزع ، وتحتويهم الحسرات .. لأن الصحيفة التي يذيعها « عياض بك » قد اجتمعت إليها الوان من الظلامة والظلم ، وهي قبل ان تكون صحيفته وحده ، وقبل ان تكون جماع مأساته وحده ...إنما هي صورة واضحة من صور الاجحاف الهائل الذي ينصب على رءوس إخوان لنا تتجهم لهم مدلهمات الحوادث ، عسى ان تضلهم او تقصم منهم الظهور، ولكنهم صامدون ، وبها مستخفون ، وتلك لعمر الله مناعة العقيدة تسمو بأولئك الاخوان على مستوى الضعف ... وويل للطغاة من عقائد الأنبياء، وويل لهم من مناعة النفوس.

والزعيم عياض بك رجل يتعجل خطاه في ذمة عقيدته ، فليست به هوادة الضعيف ، ولا جبن الرعديد الخائر ، وإنما هو يتعجل خطاه في السير إلى الأمام ، لأن العقيدة التي يدفع عنها غوائل المستبدين ، هي العقيدة التي تجمع إلى صميمها ملايين البشر ، هي الاسلام ، وحسبك به حافزاً يدعو النفوس إلى الاستماتة دون أن يناله بيده معتد أثيم ..... والرجل إلى ذلك عالم صحفي ، عالم يدرك مواضع الحياة ، وصحفي يدرى مايؤثر فيه صرير القلم ، وياله من اثر يلتمس إلى صاحبه نوال السعادة حينا ، ليقض مضجعه حينا آخر ... وهو إلى ذلك سياسي يخلع على السياسة إهاب الدين حتى يدفع عن إخوانه - وهم ثلاثون مليونا من المسلمين - كوارث الشيوعية المزدراة ، وحسبك به من رجل سياسي، ما يكاد القيد يفلت من يده حتى يتولاها قيد جديد .... ذلك هو « عياض بك اسحاقي» .

اما حديثه فنسوق إليك فصوله ، منوهين بذكر الأديب الفاضل الاستاذ حمزة طاهر الموظف بالخزانة الزكية ، والذى قام بيننا بمهمة الترجمة من التركية إلى العربية ، لأن عياض بك يستطيع القراءة والكتابة العربية تماماً ، لكن النطق يعسر عليه أحياناً .

صحفى قديم :

قال عياض بك : « تعود علاقتى بالصحافة إلى عام ١٩٠٦ فقد بدأت فى ذلك العام حياتى الصحفية حين توليت رئاسة التحرير فى جريدة (طان) أى الفجر ، ولقد كان لى فى تحريرها لون غير هذا اللون الذى ألفته الحكومة الروسية (القيصرية) من اقلام الكتاب ، فلم اكن محابيا ولا مداهنا ، ولا مرائيا ، ولا منافقاً يتخذ من قلمه وسيلة إلى الكسب كيفما كان ، وإنما كان شأنى فى التحرير — وهذا ما أفاخر به — شأن الرجل العف النزيه الحر الذى يتطلع إلى المثل الأعلى ويتطلب السعادة للجماعة قبل ان يدعو بها لنفسه ، وأية جماعة كنت أتطلب الخير لها ؟ إنها ملايين من المسلمين الذين تنهبهم فى كل يوم أحداث العدوان ، والذين لا ينفضون ايديهم من غل ، إلا لتحتمل أعباء غل آخر .. لأن الحكومات الروسية — قيصرية كانت ام شيوعية — ترى الاسلام صاعقة تهد أركانها ، وعاصفة تعصف بمبادئها »

سيل من الصحف :

« — ولقد كان من اثر هذه الروح الحرة التى تتمهد قلمى بالمضى فى خلبة الجهاد ان حكومة القيصر قد نقمت على صحيفتى (طان) فعطلتها بعد تسعة شهور ، ولكنى — وقد انتويت الجهاد حتى الموت — لم أجد فى ذلك التعطيل مايحدو بى إلى الصمت ، فأصدرت جريدة (طان بولندى) أى (كوكب الشرق) ، فلما أن عطلتها الحكومة أصدرت جريدة اخرى باسم (الصدى) وكنت أصدر هذه الصحف فى مدينة (قازان) وهى المدينة الإسلامية التى طالما نفخت أعداء الاسلام بالويل ، وطالما هبت من آفاقها الاعاصير عليهم ، لأنها تجمع إلى مجد القرم — حيث ثم بناؤها على انقاض مدينة بلغار — مجداً آخر ، هو مجد العظمة الذى تركز فيها وأصارها العاصمة الكبرى لجمهورية التتار .. وحسبك فى تصوير روعتها وخطرها ، أنها كانت المركز الرئيسى لجماعات المسلمين فى روسيا يوم هبوا عن بكرة ابيهم لتزويد الحركات التركية بالمال ، فمنها كانت ترسل الاعانات على ضروبها ، وإليها كانت تفد الوفود الداعية إلى نصرة الاسلام فى بلد يصطلى أهله من اعداء الاسلام العذاب .... تلك هى المدينة التى انبثت منها صحفى إلى أشتات المدائن ، والتى احتملت غير قليل من صور حياتى الكثيرة المتعددة . وإنى لأعود بك إلى جريدة (الصدى) ثالثة الصحف التى اصدرتها حرباً عواناً على أعداء المسلمين ، فأحدثك بأنها لم تعمر غير عام واحد ، ثم تعهدتها يد التعطيل على نسق كان فى جبروته أروع من سوابقه ، ذلك أن حكومة القيصر قد فرضت على المطابع فرضا يحتم عليها ألا تطبع هذه الصحيفة ، ثم عمدت إلى

ناحية أخرى من مناحي التنكيل فقبضت على أعوانى فى التحرير ... وأتمت حلقات سوءاتها بالقبض على ....

إلى المنفى:

« لم يكن هنالك مايدهشنى ـ شهد الله ـ فلا السجن ولا المنفى يدهشان واحداً رضى الدفاع عن حق طائفته وحق دينه ، لأنهما غاية ما تصل اليه يد البطش، ولقد قضى على بالنفى إلى (ارخنجين) وهى بلاد فى اقصى السواحل الشمالية بالقارة الاوروبية ، بل هى البلاد التى تبعد عن عاصمة الروس بخمسين واربعمائة من الكيلو مترات ، بل قل إنها البلاد المنجمدة التى يعيش فيها الدب الابيض ! قضى على بالنفى فيها ثلاث سنوات ، ولكنى لم أمض بها غير عامين حيث كانت أسباب الهرب قد هيئت لى من جانب الأنصار المخلصين، فغادرت هذا الجحيم ، ومضيت إلى مدينة بتروغراد »

حياة قلقة:

« لقد كانت حكومة القيصر تريد لى من وراء النفى أن أموت،وما فى ذلك من ريب مطلقا، لأن المنطقة التى أسلمت إليها ليست من هذه المناطق التى يسهل على المرء أن يعيش فيها طويلا ، ولكنى حين هربت لم أكن أدرى أنى أسلم نفسى من قلق إلى قلق، ومن خطر إلى خطر ، فقد اتخذت لى فى (بترو غراد) أسماء عديدة حتى أسلم ممن يتعقبون أثرى . ولقد عاودتنى فى هذه الفترة ـ فترة الهرب ـ نزعتى الصحفية، واستحوذت على الرغبة فى الكتابة والتحرير ، واستفزتنى دوافع الظلم إلى السياحة فى غير روسيا ، ومن ثم مضيت أكتب فى جريدة الصراط المستقيم التى كانت تصدر فى مدينة (فرسوفيا) كما تناولت الكتابة فى زميلات لها فى الروسيا وتركيا ، ثم أخذت نفسى بالسياحة فى السويد وفى داخلية البلاد الروسية داعياً إخوانى المسلمين إلى التآزر والتساند حتى لايفت فى عضدهم خطر الدولة البغيض ، وحتى لا تهد صرح قوميتهم مكائدها الهائلات »

ذكرياتى عن الهرب:

«وإذا كانت ذكرياتى عن أيام الهرب تجمع شيئاً من القصص المؤثرة الباقية ، فان أخلق هذه القصص بالبقاء تلك القصة التى تدلك على مبلغ ما أحطت به من إخوانى المسلمين من رعاية ، فقد كان التجسس فى العهد القيصرى بالغاً أشده ، وكنت فى (بتروغراد) أيام هربى من المنفى أطالع ثلاثين ألف مسلم يسكنون هذه المدينة ويعرفنى أكثرهم ... على أن واحداً منهم لم يفضح حقيقتى ولم يتقول على — ولو أنه فعل لكان نواله من الحكومة عطاءا كثيراً — بل لقد أحاطوا امرى بالكتمان ، وكانوا عوناً لى على ان تكون حياتى فى صميم الهدوء ، وكان من اثر هذا الهدوء ان تعهدت الكتابة — باللغة التترية — فى الوان الآداب حتى انتجت — إلى اليوم — خمسة

وثلاثين مؤلفاً، بينها خمس عشرة قصة تمثيلية للمسرح . وإذا كنت قد حدثتك عن « قصصى المسرحية » فانه يجمل بى ان اقول لك بأنى كنت فى تصوير شخصياتها ألبسها دائما الثوب الدينى حتى يكون لى من ورائها ما ابتغيه من دعاية وتبشير . ولقد لقيت إحدى قصصى واسمها « زليخا » كل عسف من حكومة القيصر، فحرمت على المسارح تمثيلها لأنها تصور حالة امرأة مسلمة قضى عليها قسراً ان تترك شعائر الدين .. ولكن الرواية مثلت بضعة شهور متتابعة بعد زوال الحكم القيصرى »

عود إلى المنفى :

« توافرت على صنوف الآلام، ولقيتنى يدها من جديد ، فان طبيعة الهرب قد احتملت معها غير قليل من الريبة ، وكان حتما على ان اتخذ لنفسى جوازات سفر لا تفصح عن اسمى الحقيقى ولا شخصيتى التى صحبتنى إلى منفاى فى المرة الأولى ، ولقد قبضوا على عام ١٩١٢ لأنى احمل جواز سفر مزور، وأبعدونى إلى (ارخنجيل) وهى تبعد عن منفاى السابق بثلاثمائة كيلومتر.. وكانت دهشتى فى ذلك المنفى الجديد لا يحدها تصوير ، لأنه كان من هذه الأمكنة السحيقة فى المنطقة المنجمدة ، بل من هذه الأمكنة التى تغيب الشمس عن سمائها أياما برمتها ، ثم تطلع فيها اياما برمتها دون أن تغيب ، ولقد مكثت فى منفاى حتى عام ١٩١٣ ثم أفرج عنى لمناسبة مرور ثلاثمائة سنة على تكوين روسيا القيصرية »

إلى القلم :

عدت إلى مدينتى (قازان) وكانت رغبتى متجهة بى الى أن أصدر بها صحيفة اكتب فيها، ولكن محافظ المدينة قد دعانى إليه فى اليوم الثانى من عودتى ، وأظهرنى على انه ينفذ معى قراراً صدر بطردى من المدينة مادامت الأحكام العرفية مبسوطة عليها وهى مبسوطة دائما. فسافرت إلى مدينة (بتروغراد) وأصدرت فيها جريدة كبرى اسميتها (إيل) أى (وطن) على أن هذه الجريدة قد ارتطمت بالصخرة التى اودت بزميلاتها من قبل ، فقد شهدت هذه الصحيفة طلائع الحرب العظمى ، وكان لها موقفها فى حادث تاريخى أستطيع ان أقصه عليك.. ذلك أن الرقابة على الصحف أيام الحرب كانت تجاوز حدود التضييق ، وكانت الجيوش التركية قد زحفت على جنوب القوقاز فى منطقة تدعى (سرى قمش) وكان من شأن الأتراك ان مدوا بالسلاح مسلمى بلاد الجرج — وهم طائفة من طوائف القوقاز — حتى يحاربوا فى صفهم ضد الروس، على ان الأتراك حاصروا هذه المنطقة وجلوا عنها ، فأصبح المسلمون تحت تأثير غضبات الروس والأرض ، أولئك الذين مزقوا من ديار إخواننا مائة قرية ، وأصاروا منهم ثلاثين الف امرأة دون رجال او مال او مأوى ... هنا أخذت جريدتى تذيع هذا الهول — على رغم الرقابة — حتى استطاعت ان تردد صداه فى صحف كثيرة بالنمسا والمانيا ، وفى صحف إسلامية اخرى ،

وكان من أثر هذه الحادثة أن الحكومة القيصرية هددتني باغلاق الجريدة وتعطيلها وطردي من (بتروغراد) ولكني لم اعبأ بذلك التهديد ولم أحفل به ، فقد مضيت إلى حادث آخر اكتب فيه .. ذلك أني أذعت أنباء الفتنة التي حدثت في تركستان، لأن رجال الحرب قد دفعوا من بنيها نصف مليون ليلاقوا حتفهم في طليعة الجيش، ولم تصمت حكومة القيصر تلك المرة ، فعطلت الجريدة تعطيلا ابديا ، على أن طبيعة العمل حفزتني إلى المضي ، فأصدرت جريدة اخرى دعوتها (كلام الوطن) وكان مولدها قرين التفكير في (الاختلال الروسي) حتى إذا ما تمت القذيفة البلشفية في ٢٦ فبراير سنة ١٩١٧ الغيت جريدتي مختاراً، واستعضت عنها بجريدة (آيل ـ وطن) مرة اخرى، على أن يد الروس الحمر كانت شراً من يد القيصر ، فقد عبثت بكل شيء وطوحت بعقائد الأحرار وافكارهم إلى الأعماق ..»

تناقض مروع :

« تسألني عن اروع حوادثي ؟ إذن فاسمع ! زعم المسلمون ان البلشفية في مستهل عهدها قد اتاحت لهم نصيبهم من الهواء الطلق ، ولم تكن سوءاتها قد رفعت بعد اعلامها في افق البلد المنكوب ، زعم المسلمون ذلك، فأرادوا ان يقدموا لي هدية ـ من صنف مهنتي ـ ولم تكن هنالك سابقة عرض علي ، ولا طلب مني، فكم كان رائعاً ان يفاجئني اولئك الاخوان بعقد أمضوه باسمي مع شركة من شركات المطابع الكبرى لترسل إلى اكبر مطبعة تضمها دار طباعة في روسيا كلها .. وثمنها ؟ لقد دفعوه بأكمله ..!»

« لا اكتمك اني كنت في ذلك الحين املك اكبر دار للطباعة ، ولطالما صدرت عنها كتب دينية ورسائل قيمة تدعو إلى اخاء المسلمين ، وكذلك جريدتي التي نسقتها تنسيقاً بديعا .. ولكن الشيوعية التي طغت على كل شيء قد وقفت اعوانها على ان ينكلوا بهذه الدار تنكيلا هائلا ووقع لهم ما ارادوا، فان جندهم قد احتلوا الدار وطردوني من مكتبي في الجريدة . واستعملوا « الورق » في رسائل دعايتهم، ثم فرقوا آلات الطباعة كل واحدة منها إلى مكان قصي بعيد! أليس في هذا التناقض ، ما يدعو إلى الروعة ... ؟ وماذا عساك تفسر سعادة ضافية تتوفر علي، ثم تذهب عني في لحظة واحدة ..؟ لا أريد أن أقص عليك ما يهولك ، ولكن حسبك أن تعلم بأن « الورق » الذي كان في هذه المطبعة — والذي أهداه المسلمون إلى — قد غذى الدعاية الشيوعية بالمنشورات والكتب والرسائل ثلاث سنين كاملات.. فأي هول فادح ؟ ..»

من الجحيم :

« لقد رأيت المسلمين في الروسيا يطوح بهم أعوان البلشفية إلى الأعماق ، ولقد هالتني تلك الفجيعة تحتوي إخواناً لي ، وإخواناً للمسلمين جميعاً ، وكان موقفنا نحن الأحرار موقفاً صعباً، فليس في مقدور أحدنا أن يهرب من ملابسة عذابه ، إلا أن يفر بعيداً عن هذا الأتون

ولقد تحققت لى آمالى فى الهرب، فتركت الروسيا وتجولت فى بلدان أوروبية كثيرة ،مذيعاً فظائع الشيوعيين،منددا بما يجلبونه من دمار، ويصبونه على رءوس المسلمين هناك ، ثم أصدرت صحيفة (الطريق القومى) فى برلين ، وما تزال تصدر بها حتى اليوم ، منتهياً فى اقامتى إلى هذه الدولة التى أتلاقى فيها بطائفة كبرى من إخوانى المسلمين ، هى « بولندا » ومن خير الاسلام أن يكون له أتباع بين أهلها فانهم من الثقافة فى الصميم ...»

المؤتمر الاسلامى:

وسألت أخيراً عياض بك عن الحافز الذى حفزه إلى حضور المؤتمر الاسلامى فقال :

« كانت تحفزنى إلى المؤتمر دوافع جمة ، منها التعارف إلى طائفة من قادة المسلمين ، ومنها إظهار العالم الاسلامى على ما يعانيه إخوانهم فى روسيا من آلام ، ومنها الافصاح للمسلمين عن طوايا الشيوعية الخبيثة حتى يكونوا بمنجاة منها ، لأنها كالغازات الخانقة متى أدركت الجو سممته وقتلت من يتنفس فيه. . .

وإذا كان المؤتمر الاسلامى لم يؤد آمال المسلمين جميعها على النحو الذى كانوا يأملون،فمن حقنا أن نقول عنه بأنه كان حدثاً حافلا بالخير ، وكان إلى ذلك بداءة لرابطة قوية بين المسلمين بعضهم بعضاً ، وما من شك فى أن خطوات المؤتمر ستكون فى مستقبلها سديدة رشيدة ، وأن قراراته سيكون لها من النفوذ ما يكبر من شأنها ويزيد من قيمتها .. ذلك إذا توجهت الشعوب الاسلامية إليه متحدة آراؤها ، قوية إرادتها »

مصر :

ولم يشأ الزعيم الكبير أن ينهى حديثه إلينا دون أن يحملنا آمالا لمصر والمصريين، وقد رجانا — وقد انصرفنا إلى أحاديث صحفية خاصة — أن نذيع على قرائنا انه من الخطر على مصر جد الخطر ، أن تنادى بالفرعونية ، دون الشرقية ، او العربية ، فان مصر يجب ان تكون دائما على رأس بلاد الشرق ، فهى كعبة آمالنا ، وملتقى أمانينا معشر المسلمين ، فاماذا تخسرون جيرانكم ؟

نبه إخوانك المصريين إلى الخطر الداهم الذى يحل بهم من جراء هذه الدعوى، وقل لاخواننا المسلمين ، حاذروا الشيوعية ،وحاربوها ، وقاطعوها فى كل معاملاتكم ، وإلا فالويل كل الويل للمسلمين جميعاً ، لكم ولنا على حد سواء ، من هذا المذهب الخطر ، الذى يتدسس إلى النفوس الضعيفة تدسس الجراثيم الفتاكة .

وبعد : لقد احتملنا هذه الآمال وأذعناها شاكرين له ذلك الحديث الذى يظهر قراء «المعرفة» على جوانب جديرة بالذيوع والشيوع ،